

من الأدب الألماني المعاصر

جورج ماورر

محمد نبيل شريعت

يُعد جورج ماورر أحد ممثلي الشعر الألماني الاشتراكي المعاصر الذي اتخذ من الحرب العالمية الثانية نقطة تحول ومنعطفا حادا لمجرى تطوره الفكري والشعري إذ وجد نفسه مضطرا - بعد أن وضعت الحرب أوزارها - إلى تغيير نظراته الفلسفية عن العالم وطريقته الشعرية في معالجة قضايا المجتمع وبسط أمور الحياة بشكل عام... انطلاقا من هذا المفهوم ونحن نبعث في هذا الموضوع - علينا الاهتمام بالظروف الاجتماعية الموضوعية التي لا زمت الشاعر منذ نشأته ورافقته في شبابه وكان لها تأثير عميق في تطوره فيما بعد .

وُلد جورج ماورر في الحادي عشر من شهر آذار عام ١٩٠٧ في بلدة (ريغن السكسونية) لأسرة ريفية - عمل والده في التدريس بإحدى المدارس الابتدائية في بوخارست بعد أن هاجر إليها مع عائلته عام ١٩١١ - نشأ الشاعر ضمن عائلة قروية متمسكة بعاداتها وتقاليدها تمسكا مطلقا ، متزمتة في دينها ومعتقداتها المرتبطة بالكنيسة البروتستانتية التي هيمنت على الأسرة وأضفت جوا من التدين أو بالأحرى من التصوف داخل المنزل - وإن كنا نتكلم عن طفولة ماورر فيجب أن لا ننسى دور الوالد الذي ساهم في توجيه اهتمام طفله الوجهة الدينية التي نشأ فيها هو . كل هذه الظروف كان لها نتائجها وتأثيرها البالغ على شاعر المستقبل إذ كانت عنصراً هاماً دخل تكوين شخصيته ولازمه فترة شبابه دون أن تكون له إرادة في ذلك .

وعندما كان ماورر تلميذا في المرحلة الثانوية تعرف - لأول مرة - على اللغة الألمانية الفصحى لدى دراسته للشعر الألماني الكلاسيكي حيث استحوذت لغة الادب اهتمامه ، هذه اللغة التي أصبحت بالنسبة له فيما بعد أداة للتعبير عن أفكاره وانطباعاته نحو العالم وتأملاته تجاه الكون ووسيلة لترجمة مشاعره والتزاماته الى أشعار وقصائد *

وفي عام ١٩٢٦ غادر الشاعر بوخارست متوجهاً الى ألمانيا طالباً للعلم حيث أصبح هذا البلد فيما بعد وطنه الأم اذ كان معجبا بهذا الوطن أيما إعجاب لما يتمتع به من حضارة فنية وتراث أدبي فتن الشاب وزاد من حماسه نحو الادب والشعر *

ولكن هذا الإعجاب وهذا الحماس كانا مقرونين بالتالي بنوع من النفور تجاه العلاقات الاجتماعية التي كانت تسود ألمانيا آنذاك ، ولقد صور لنا الشاعر هذه العلاقات المتسمة بالصيغة الامبريالية ، امبريالية العشرينيات من هذا القرن حيث الاستغلال والمنافسة الاقتصادية والتزاحم الوحشي والافتتال في سبيل المادة دون مبالاة للقيم الاجتماعية ودون اكترات للشعور الانساني الذي لم يعد له مكان في مجتمع الاستهلاك والاستغلال * كل هذه الافكار يسلطها الشاعر لنا معبراً عن انطباعاته تجاه هذا البلد الغريب في الديوان الشعري الذي ألفه فيما بعد - وبالتحديد عام ١٩٥٦ - وأطلق عليه اسم (تصوير الذات Selbstbildnis) ومن جملة ما قال في هذا الديوان :

- هكذا تزدهم المنازل وتشرب الى أعلى
- وهكذا يتصادم ضجيج الانسانية
- كما لو أن قطار الزمن توقف فجأة
- لينقلب الوجود وتتبدل المفاهيم حيث
- تتزاحم لافتات المحال التجارية «

في هذا الجو المشحون بالاضطراب والقلق يثر ماورر دراسته في جامعة برلين ولايبزغ فدرس الفلسفة وتاريخ الفن والادب الألماني ، والى جانب

الدراسة لم ينس ماورر نظم الشعر الذي كان أهم ما يميزه في هذه الفترة تأثير الشاعر (موريكة Mörike) عليه حيث الارتباط الوثيق بالاعتقاد الديني المتزمت وبالتقاليد التي لا تقبل المرونة أو التطور ، ولقد أكد ماورر على ذلك في ديوانه الأنف الذكر حيث تابع وصفه للحالة النفسية المضطربة التي كان عليها عند قدومه الى ألمانيا اذ أخذ اليأس منه كل مأخذ فوجد في قصائد هذا الشاعر المعروف عنه الانطواء على النفس والانزعاج عن العالم الخارجي مغمضا عينيه على ما يجري فيه ليجد في ذاته ملجأ يقيه الاضطراب الخارجي - ولقد كتب ماورر في ذلك يقول :

« غبار وشمس وعاطفة

● تمازجت

● ليرفرف فوقها مثل الفراشة بحنان ، شعر الربيع لموريكة »

هذه الاشعار ترمينا الاثر البالغ الذي كان يمارسه موريكة على نفسية ماورر بالإضافة الى تأثيرات أخرى لشعراء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذين شابهوا (موريكة) في نظريته السوداوية عن العالم ، عالم الصراع والتناحر ، عالم استغلال فئة صغيرة لفئة كبيرة في المجتمع ، ولقد علل ماورر هذا التأثير حيث أجاب عن سؤال طرح عليه حول الشعراء الذين تركوا فيه أثرا انعكس في شعره فقال : « الى جانب شعر غوته وشيللر هناك شعر (موريكة) الذي أثر في داخلي ، حيث كان شعره - أي شعر موريكة - بالنسبة لي التجسيد الكامل للحالة النفسية التي كنت أشعر بها في قراراتي »

وفي برلين تعرف الشاب ذوالتسعة عشرة ربيعا لأول مرة على مدينة صناعية كبيرة يشهد فيها ولأول مرة أيضا العلاقات الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي الامبريالي القائمة على الاستغلال والسمي وراو الربح على حساب الآخرين من البشر كما وعاميش عن كسب البطالة الناجمة عن الازمة الاقتصادية التي سيطرت على ألمانيا فأفزح اليأس المسيطر على المجتمع المتحكم فيه رأس المال - أفزع الشاعر الغر فكان عليه الهرب بعيداً عن هذا الواقع البائس فعله فعل كثير من

شعراء هذا الوقت لأنهم لم يروا في هذا المجتمع ما يشجعهم على التفاعل مع أحداثه ليعملوا الانتاج الشعري المحلل لأوضاعه وظواهره على أساس واقعي علمي *

لذلك لا عجب والوضع على هذه الحالة أن يكتب ماورر على شعر (ريلكة Rilke) المتميز بانعزالية تمكس نفسيته السوداوية هو الآخر فاتخذ شاعرنا بالإضافة الى شعر شيللر المثالي مثالا يحتذى به في شعره وملجأ له ينطوي بهما على نفسه بعيدا عن مشاكل المجتمع التي كانت بحاجة ملحة الى أناس من شعراء وفلاسفة ومفكرين يفندوها ويبينون أسبابها ويضعون الحلول لها ، لقد كانا مثالا له في تأملاته الشعرية ليس للواقع وإنما لما كان يختلجه من شعور فقط * ولقد سمي ماورر هذه المرحلة من تطوره الفكري (مرحلة ريلكة – شيللر وان دلت هذه التسمية على شيء فأنما تدل على ما كان لهذين الشاعرين من تأثير بالغ على الشاعر الشاب *

وبالرغم من هذه الحقيقة المرة التي واجهت الشاعر في برلين واثني من شأنها تحريره من نظرتة المثالية المتصوفة الى الحياة تمسك ماورر بشعوره الديني نحو الوجود وباعتقاده الخيالي المستند على قاعدة ميتافيزيكية *

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية سيق ماورر الى الجيش حيث اشترك بها كجندي مثله مثل الملايين من الشباب الذين أجبروا على الدخول في هذه الحرب البربرية البشعة ، وفي عام ١٩٤٤ وقع ماورر في الأسر الروماني ثم آل الى الأسر السوفيتي ، ولكن هذا لم يستمر طويلا اذ عاد ماورر الى ألمانيا ثانية بعد أن أفرج عنه فكان في عداد العائدين الى وطنهم المدمر من جراء حرب ذهب ضحيتها الملايين من البشر غدرت بهم الامبريالية الفاشية (للبحث عن مكان تحت الشمس) فكان مصير وطنهم الدمار *

لقد كان الشاعر مثله مثل غيره من أبناء وطنه في ذلك الوقت فريسة للحيرة النفسية القائلة حيث لم يعرف أي طريق يسلك ، وإلى أين ستؤدي هذه الطريق . هذا السؤال كان في الواقع سؤالاً أساسياً طرح ليس فقط من قبل الأدباء والسياسيين وإنما من قبل عامة الناس الذين كانوا على مفترق طرق ليبدأوا حياة جديدة بعد أن ضاع كل شيء .

هذه الأوضاع البائسة دفعت ماورر إلى إعادة النظر في نظريته القديمة التي لم تعد تساعد وترشد أمله وتهدئ من روعه وتخفف من محتته ومحنة وطنه ، ولقد وجد نفسه في وضع يدعو إلى التفكير والحسم في موقفه الفلسفي بالنسبة للحياة وهذا ما حدد بالتالي سمات تطوره الشعري ، فتبين له أن شعوره الديني لم يسمفه في تحليل أحداث الحرب الماضية المفزعة بموضوعية وواقعية ولم تعد مثاليته وسيلة يعبر بها بأبيات شعرية عن أحوال حرب إجرامية . من هنا كان لزاماً على الشاعر البحث عن قاعدة شعرية جديدة يعتمد عليها في وصفه لمشاعره وعرضه لتأملاته عن أحداث الحرب ، هذا ما يفسره لنا قوله : « لم أستطع بانعزالية ريلكة ولا بشالية شيللر إدراك كل هذه الأحداث — أي أحداث الحرب العالمية الثانية » .

من هنا نخلص إلى القول بأن الحرب كانت بالنسبة للشاعر نقطة تحول في تطوره الشعري لأنها هزته من الأعماق وأصابته في الصميم . ولقد نوّه الشاعر عن تأثير الحرب عليه ودور أحداثها في التقليل من أهمية ريلكة في شعره . . . يقول ماورر في ذلك : « لقد لاحظت خطأ نظرتني إلى العالم المصبوغة بانعزالية ريلكة وتنبهت إلى الحقيقة ووعيتها بعد الحرب العالمية الثانية وما جرت من مصائب على ألمانيا — الوطن الذي أحببته وأحبه »

وبهذا يكون ماورر قد عبر عن عزمه على ترك وهجران (متفاء الداخلي وملجأ الروحي) الذي كان يأوي إليه هرباً من تناقضات الحياة وأعلن التفاته

الى العالم الخارجي والى ذويه من بني البشر مولياً اهتمامه لمشاكلهم وقضاياهم في مجتمعهم .

في الواقع لم يكن هذا الحسم بالامر السهل عليه اذ كان لا بد من تصفية الحساب مع الكثير من العلاقات والمفاهيم التي شب عليها وتطبع بها خلال طفولته وشبابه ، لقد كان عليه الكفاح مع نفسه ، مع ذكرياته ومع ماضيه ، لذلك لم يكن لهذا الكفاح أن ينتهي خلال أيام قليلة معدودة ، بل استمر فترة طويلة من الزمن وسارفي مراحل عدة حتى اكتملت صورته وانتصر فيه الشاعر الاشتراكي الواقعي ليس دون ثبات وتصميم وصلابة .

وأول ديوان للشاعر بعد الحرب العالمية الثانية كان (أغاني العصر (Gesänge der Zeit) عام ١٩٤٨ ، ونسبتل من عنوان هذا الديوان أن الموضوع الذي يعالجه هو ذاك الذي شغل اهتمام شعراء وأدباء تلك الفترة ، ولو أمعنا النظر قليلا في هذا الديوان لوجدنا أن الشاعر يبحث في طياته عن القوة غير المروية التي تبقى وتديم والقوة الخارقة التي تسير العالم رغما عنه أي أنه بمعنى آخر كان يعزو كل أحداث الحرب العالمية الثانية الى هذه القوة الخارجة عن ارادتنا وقدراتنا ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن الشاعر لم يتحرر كليا من قيود أفكاره القديمة القائمة على أرضية غير واقعية ، ولكننا رغم ذلك نستطيع أن نرى اختلافا واضحا بين هذا الديوان وبين ديوان (أصوات أبدية (Ewige Stimmen) الذي كتبه قبيل الحرب بقليل اذ أن شعره هنا لم يعد يعالج موضوع الديمومة وموضوع العالم الآخر بل أخذ يدعو الى التغلي عن الاحلام والاماني بالخلود في جنان الآخرة :

— حطموا الاعتقاد بالفراديس

— التي ستوجد ذات يوم دون عمل .

هذان البيتان يدلان على التحول الملحوظ في وجهة نظر الشاعر الذي كان يؤمن بديمومة الحياة بعد الموت ، ولكنه وجد هنا أن الجنة والسعادة الحق لا

يستطاع التوصل اليها الا اذا بُذِلَ العمل والجد في سبيلها ولا فرق أن وجدنا بعد ذلك في العالم الاخر أو في الحياة الدنيا .

ولقد بدأت مرحلة جديدة في حياة ماورر بشكل عام وفي تطوره الشعري بشكل خاص لدى ظهور ديوان جديد له عام ١٩٥٠ أسماء (وعي) حيث نظم فيه اعترافاته بخطأ فكرته السابقة عن العالم والحياة . وعنوان الديوان يعبر أصدق تعبير عن هذه الفكرة بالذات . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو بحثنا عن المؤثر القوي الذي كان العامل الرئيسي في استبدال نظريته وتفكيره الخاطئ - على حد قوله - بفكرة جديدة عوضا عن القديمة وبأسلوب جديد في الطرح والمناقشة للمواضيع الشعرية ، ولقد أجاب ماورر عن هذا السؤال بقوله : « لقد فسرت لي الماركسية أحداث الماضي وشرحت لي ما علي القيام به كشاعر »

لقد كانت الماركسية إذن الطريق الذي سار ماورر على هده في معالجته لقضايا المجتمع الجديد وفي تفسير ظواهره الماضية بما فيها الازمات التي تعاقبت على ألمانيا قبل الحرب ثم الولايات التي جرت بها النازية بحربها الفاشية الامبريالية ضد الانسانية .

ولقد اتخذ الشاعر من العبارة الأنفة الذكر مبدأ له في حياته الادبية فشرع في تحقيق نظريته الفكرية الجديدة المرتكزة على أسس الماركسية في انتاجه الشعري وهذا ما بدا جليا في الديوان اذ أننا نستطيع اعتباره وثيقة لوجهة نظره الجديدة وفكرة فلسفية مختلفة عن السابقة لانه برهن فيه على بداية لتحرير نفسه من النظرة المثالية التي أضحت ثقلا يضغط عليه بعد تأكده من أنها لم تعد تنمده بالعون لدى تفسيره للظواهر الاجتماعية الجديدة ، اذ اعترف بتصورات الخاطئة عن العالم والطبيعة ، هذه التصورات التي سلبته قوة الخلق والابداع وجعلت منه مجرد (ببغاء) - كما جاء في الديوان - يتلقى الاشياء كما هي ويلحظ الحوادث بلا اكتراث دون أن يتفاعل معها ودون أن يؤثر فيها تأثيرا ايجابيا خلافا . هذه الوحدة الديالكتيكية بين الانسان والعالم المادي أضحت العنصر

الرئيسي الذي ميز دواوينه الشعرية اللاحقة إذ تعمقت وترسخت وازدادت وضوحاً مع ظهور كل ديوان جديد *

ولقد كرس الشاعر ديوانه الجديد (تقويم المقاطع الثلاثة) لظواهر وجهة نظره عن الوحدة الديالكتيكية التي تسود الطبيعة حيث عالجت كل قصيدة من هذا الديوان ظاهرة معينة من ظواهر الطبيعة المتعددة أو جانباً من العلاقات الانسانية بين المخلوق والكون *

ويتحسس ماورد هذه الظواهر بشعور جديد لم يكن معروفاً لديه من قبل إذ ينظر الى الطبيعة - كموضوع شعري - نظرة مختلفة كلياً عن سابقتها ليكتشف فيها مجراها المادي ودورها الديالكتيكية منذ البداية حتى النهاية * وتدلنا قصائد هذا الديوان على تطور الشاعر الملحوظ - وهذا ما يهمننا في بحثنا - إذ أنه بدأ يفهم عملية تبدل ظواهر الطبيعة بتبدل فصولها فهما موضوعياً مستنداً بذلك الى قواعد علمية صاغها بأسلوب شعري رائع أضفت على الديوان صبغة تعبيرية في غاية الدقة والجمال أطلعنا على مزيد من التباعد بينه وبين النظرة المثالية التي كانت تردّ تبدل الظواهر الطبيعية الى قوة خارقة لا يدركها انسان تتحكم في العالم وتسير ظواهره حسب مشيئتها ، ولقد صور ماورد فرحته وسعاده بنظرته الجديدة هذه عندما قال :

« لقد زحفت هارباً من هموم الليل

- كما يخرج العصفور من البيضة

- كسرت قشرتها

- لانتزعه الان طليقاً »

وفي الديوان الشعري (اثنان وأربعون مقطوعة) عام ١٩٥١ يتابع الشاعر اظهار أفكاره التي بدأها بشكل جلي في ديوانه السابق حيث يحاول فيه الانطلاق من قاعدة أكثر واقعية مستوحاة هذه المرة ليس من الطبيعة بل من أمور مجتمعه الجديد ، حيث يظهر إعجابه بجمال عالم أصبح الانسان فيه انساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى وما تتضمنه من مفاهيم،

بالإضافة إلى تشديده على طريقته الشعرية الجديدة في بسطه لهذه الأمور ومعالجته لها ، ومن جهة أخرى نستطيع أن نعتبر هذه المقطوعات الاثنتين والأربعين اعترافاً جديداً بتوعية جديدة إذ أنها لا تسلم بغطا النظرة القديمة فحسب وهجران العالم المجرّد فقط وإنما هي اعتراف بالعالم الجديد الذي يحترم مكانة الإنسان في المجتمع :

« لقد بدأ الآن بخوف الإنسان بالتمزق
— هذا الخوف الذي عانى الإنسان منه في داخله »

إنه إذن العالم الجديد الذي يفسح المجال لقوة الإنسان في الخلق والابداع ، كيف لا وهذه القوة إنما توجهها التعاليم اللينينية إلى أهداف مفيدة للإنسانية جمعاء لأنها تحمل في داخلها معنى إنسانياً عميقاً .
أما في ديوانه الشعري الذي كتبه عام ١٩٥٩ وأطلق عليه اسم (عناصر) فقد عالج الشاعر سلطة قوى الطبيعة وموقف الإنسان تجاه هذه القوى إذ ثبت « لماور » أن الإنسان لا يستطيع عزل نفسه عن العالم الذي يعيش فيه لأنه مرتبط بالطبيعة شاء هذا أم أبى ، أنه يعيش في وسطها ، كيف لا وهو عنصر من عناصرها ، أنه يخرج منها يعود إليها ، يخطواهرها تصيبه في التصميم لدى مجراها وتغييرها ، ولم ينس الشاعر أن يحدد هذه العناصر التي هي في الواقع المقومات الأساسية لكل ظاهرة طبيعية : الماء والهواء والأرض والنار .

ويرى الشاعر أن الإنسان لم يقف مكتوف الأيدي حيال هذه القوى فهو في صراع مع الطبيعة منذ الأزل ؛ يقوم بتشذيب قوتها وفرض إرادته عليها وتكييفها حسب رغباته وضرورات عيشه ، فهو إذن لم يستكن لها ولم يستسلم لجبروتها ، وكانت وسائله في ذلك عديدة فهناك الفن الذي يرى الشاعر فيه وسيلة ثورية لتغيير المفاهيم الاجتماعية إلى مستوى أفضل لخدمة الإنسان وخصوصاً إذا كان مرتبطاً بالعنصر الثاني وهو العمل حيث يستطيع الإنسان به تبديد مخاوفه من الماء وفيضانه ومن النار بتكريس عمله الذهني والعقلي ليلخلق من هذه العناصر — التي كانت مصدر خوف له — منجزات عجيبة تحقق سعادته وتبني رخاؤه ،

والى جانب الفن والعمل هناك الوسيلة الثالثة لتغيير وجه الطبيعة وتبديل معالمها-
انه الحب في معناه الشامل اذ ان لهذه الوسيلة تأثيرها غير المباشر على اسهامه
في اضماء صيغة الانسانية على الشعور الانساني ، وهو الذي يفجر طاقات
الانسان وينشر في العالم شعاع الامل .

وهكذا يظهر « ماورر » من خلال ديونه كشاعر واقعي دياكتيكي ذي شعور
اكثر انفعالا بالاشياء المحيطة به لانه بدأ يعرف تأثير الانسان على هذه الاشياء .
انه يرى في الطبيعة المكان الذي ناتى منه ونؤول اليه ، تلك اذن العلاقة
الديالكتيكية بين الانسان والطبيعة .

ولقد أظهر ماورر عمق هذا الشعور في دواوين شعره الاخرى مثل
(رحلة شعرية Poetische Reise) عام ١٩٥٢ (وعرس البحار
(Hochzeit der Meere) ١٩٥٣-١٩٥٤ (وطن مخدر Mahnende Heimat)
١٩٥٥ - ١٩٥٦ حيث لم تبق قصائد ماورر مقتصرة على الطبيعة وعناصرها
بل تغطاها الى الواقع الحي الذي يحياها الشاعر في بلد الاشتراكي القتي لقد
انتقل ماورر الى معالجة الأحداث المعاصرة في وطنه وفي البلدان الاشتراكية الاخرى
ليقوم بمقارنتها بالاضاع والأحداث في مجتمع المانيا الغربية الرأسمالي .

ففي الديوان الشعري (رحلة شعرية) يتجول الشاعر بنا في المدن
والمناطق المختلفة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية الفتية عارضا علينا بأمانة
واقعية البناء الاشتراكي ، ويربط خلال هذا العرض الماضي العظيم لألمانيا
بالمجتمع الجديد لأنه امتداد وتتمة للتراث الانساني وتحقيق لأهداف ناضل من
أجلها أبناء ألمانيا العظام من مفكرين وفلاسفة وموسيقيين وأدباء .

وبينما يعالج الشاعر في هذا الديوان جملة من المنجزات والمشاريع التي
رأها في رحلته الواقعية ليترجمها الى رحلة شعرية اتنبض بهذا الواقع يتكلم في
الديوان الآخر (عرس البحار) عن واحدة من المنجزات الكثيرة في الاتحاد
السوفياتي اذ أنه يصف لنا وصفاً شعرياً دقيقاً مليئاً بالصور التعبيرية الرائنة
التي تجعل الموضوع المعالج سلس الوقع على أذن القارئ والمستمع رغم جفاف

مادته ، اذ انه وصف لعملية بناء القناة التي تربط نهر الفولغا بنهر الدون .
وعرض الشاعر لهذه العملية بجزئياتها تبين قوة الملاحظة والقدرة الشعرية
على ربط هذه الجزئيات مع بعضها لتكون صورة مترابطة توحى للقارئ بأنه
أمام هذه القناة يرقب كل مرحلة من مراحل بنائها .

بهذين الديوانين في عرض الواقع الحي جسد « ماور » قمة مقدراته
الشعرية في تصوير الانسان العامل أثناء قيامه بعمله مفردا بقوته العظيمة
الواقع ووجه الطبيعة لصالح الانسانية .

ولكن رغم ذلك لم يظهر « ماور » في هذين الديوانين وفي دواوينه
السابقة كشاعر يتعمق بالاشياء الواقعية للكشف عن خلفيتها وتحليلها وليس
فقط عرضها ، لقد كانت ممالجته لجوهر الانسان العامل غير كافية رغم أن
الجوهر الانساني للعامل بدا جليا في المناطق التي وصف فيها المنجزات المحققة .

ولقد عبر ماور في ديوانه الجديد (صور من التاريخ) ١٩٥٨
عن وجهة نظر ماركسية بعثة في فهمه لتاريخ الانسانية الذي اعتبره
تاريخ نشوء وامتلاك القيمة التي تمثلت في وسائل الإنتاج وفي صراع الطبقة
المستغلة - بما فيها الطبقة العاملة - مع الفئة المستغلة واعتبر هذه الفكرة
بالذات المحور الذي دارت وتدور حوله كل الاحداث التاريخية ، فعرض لنا
أشكال استغلال الانسان للانسان في كل الانظمة الاجتماعية الماضية ، ليأتي الى المجتمع
الاشتراكي حيث وجد الجو الصحيح للملائم للمخلق الابداعي المفيد للانسانية بعد
القضاء على العلاقات الاستغلالية في الانتاج .

ولقد كرس ماور دواوينه الثلاثة اللاحقة للديوان الأنف الذكر لموضوع
الحب الانساني مبتدئا بالعلاقات العاطفية الطبيعية بين انسانين ليخلص الى
الحب المؤثر في العلاقات الاجتماعية لاضفاء الصبغة الانسانية عليها فكان ديوان
مديح فينوس (Lob der Venus) عام ١٩٥٩ (وأشكال الحب) عام ١٩٦٠
وديوان (أفكار الحب) ١٩٦١ فأكدي الديوانين الأول والثاني على دور الحب في التغلب
على الوحدة وفي تهذيب الشعور الانساني واكمال شخصية الانسان لانه يسهم في تفجير طاقات

وامكانيات العشاق لتفاعل مع حركة الطبيعة المستمرة من أجل السيطرة على العالم *

ويشير ماورر في ديوانه الاخير (اشكال الحب) الى شكل نبيل من أشكال الحب الذي يؤكد تحرره من مفهومه البرجوازي انه اذن الشكل الذي يعبر التعبير الصادق عن المعنى الحقيقي للشعور الانساني وليس فقط الحب بمعناه الضيق بين شخصين من جنسين مختلفين وإنما الحب لكل الانسانية *

وبذلك نفهم الحب على أنه إمكانية السعادة والانسجام بين الناس من جهة وبين هؤلاء الناس والبيئة المحيطة من جهة أخرى ، ويشترط في الحب حسب رأي « ماورر » أن ينعكس الى الخارج لا أن يبقى مقتصرًا على العواطف الذاتية ويجب أن يكون الحب أيضًا تعبيرًا عن السلام — يقول في ذلك :

« لكن نحن نسمي الحب — السلام العتيق
— الذي يجعل كل شيء خلاقًا »

ان فهم الشاعر قدًا يذكّرنا بالقصيدة الماركسية للحب الذي يجب أن يجسد الاقتراب المتبادل للانسان مع الطبيعة من أجل السيطرة عليها والتحكم فيها ، وبذلك يعبر الشاعر مرة أخرى عن موقفه الفلسفي الملتزم بالنظرية الماركسية ليس فقط بالنسبة للعالم والطبيعة وإنما لمشاعر الانسان ولأرق عواطف الجوهر الانساني *

ولو أمعنا النظر في المواضيع التي عالجها الشاعر في دواوينه منذ أن اختار طريقًا جديدًا له في حياته الشعرية والعامّة لوجدنا أن هناك جملة من المواضيع تعكس هذا الطريق الجديد وتتكون من أربعة عناصر وهي (المادة ، التاريخ ، الحب والعمل) حيث ظهر لكل عنصر في ديوان منفرد حتى كان عام ١٩٦٢ عندما خرج ديوان جديد الى حيز الوجود بعنوان (خاصتنا) حيث جمع « ماورر » هذه العناصر لتكون موضوعاً واحداً يبحث في المرحلة الجديدة لتطور عالمنا ويحاول فيه الشاعر بتأملاته الشعرية المادية وطريقة

عرضه الديالكتيكية الوصول الى فهم أعمق حول تاريخ الانسانية وتحديد علاقة الانسان بالماضي والحاضر *

وينطوي تحت هذا الموضوع الواسع الكثير من المواضيع الجريئة التي انكب عليها الشاعر بالبحث والتحليل فنجد مثلا موضوع المنجزات والفوائد التي حققها القدماء لجيلنا العاصر ولانسان المستقبل باذلين في ذلك كل التضحيات التي وصل الانسان بها الى القمر ، وهناك موضوع العمل الذي يتشرف به الانسان لانه وسيلة لتحسين أوضاعه ولتطوير نفسه ، ويدخل تحت هذا الموضوع الانسجام في حب البشر بعضهم لبعض وللطبيعة التي تحتل في الديوان مكانا بارزا ، بالإضافة الى الفن الذي يعتبره الشاعر وسيلة لتغيير وجه الطبيعة فيسوق لنا الامثلة من فنون وحضارة المصريين القدماء واليونانيين الذين حققوا المعجزات بهذا الفن ، وينبه الشاعر في نهاية الديوان الى الحفاظ على المنجزات التي حققها انسان العاصر وحمايتها من نزوات الشريرين من بني البشر فيذكر بالعهد النازي وجرائمه بحق الانسانية ، كما ينصح باستخدام هذه المنجزات لتحقيق منجزات أخرى تكون ذخرا لجيل المستقبل *

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

★ ★ ★

من الأدب الأرمني الحديث

الشاعر يغيشه تشارنتس

دراسة وترجمة : نظار ب. نظاريان

في مدينة قارص تلك المدينة القديمة قدم التاريخ ، حيث كانت الحياة تمضي رتيبة جافة ، خالية من المفريات رغم جمال الطبيعة حولها ، تكسوها مسحة من الحزن ، وتظلها غلالة من الألم . وتقارن هذه المدينة بين ماضيها العريق في الحضارة والأذهان ، وبين حاضرها المؤلم العزين ، بما أصابها من القرب والدمار ، بسبب الأتوال التي توالت على كاعلها منذ مملكة تاييري العريقة في الحضارة الأرمنية القديمة قبل الميلاد ، الى مرور جعائل الغزاة والقاتلين ، حتى إعلان الحرب العالمية الاولى . ففي هذه المدينة ولد الشاعر يغيشه تشارنتس بن ايكار صوغومونيان في ١٣ آذار من عام ١٨٩٧ .

كان والده يشتغل بتجارة البسط والطنافس ، حاملاً في اقوار نفسه بعضاً من قساوة الطبع وغم الحياة . مثقلاً بوطاة هموم الميشة ومرارة واقعها . تمضي ايام الطفولة والصبا ، وتنتفق براعم الموهبة الشعرية في براع هذا الفتى وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر ، فيغزو الحب قلبه البكر مفعراً فيه ينابيع العواطف والاحساسات ، فتندفق جداول الشعر رقراقة صافية . وينظم باكورة قصائده ويهديها الى تلك الفتاة التي احبها وكانت تدعى (اسديك) . وترى هذه الباقة النور لأول مرة في مجموعة صغيرة بعنوان (ثلاث اغنيات الى الفتاة الحزينة) في مدينة قارص سنة ١٩١٤ . ثم يستمر ظهور قصائده في المجلات الادبية .

هكذا يدخل الشاعر عالم الشعر الواسع . وتعرف هذه المرحلة من حياته الشعرية بالمؤثرات الرومانسية ، خاصة مؤثرات الشاعر الوجداني وإيهان ديريان ، الى جانب مؤثرات الشعارين المعروفين أوهانيس طومانيان وأويديك اسحاقيان .

كان تشارنتس عصبي المزاج ، مغرط الحساسية ، مرهف الشعور يحمل في جوانبه قلباً ثائراً وروحاً متمردة على كل شيء . وسوف يظهر هذا التمرد في أشعاره . لكن غلالة الحزن الرومانسي كانت تبدو في البدء واضحة المعالم وبعد ذلك أخذت تختفي ، ولكنك بين الحين والآخر كنت تشعر بأن غلالة من الرومانسية لا تزال تظهر آثارها حتى في أشد قصائده واقعية وثورة . غير أن شعره في هذه المرحلة لا يخلو من الصور الواقعية ، وصدق الاحاسيس المتمثلة في حياة بسطاء الناس وكفاحهم اليومي في العالم اجمع .

وفي مرحلة ما ظهرت المؤثرات الرمزية الفرنسية . وأحب شعرائها الى قلبه كان الشاعر الفرنسي (الفريد سامبين) .

طرق تشارنتس جميع ابواب الشعر ولكنه برز في الشعر الملحمي شعر البطولات ، بطولية الناس من أجل الحرية وفي سبيل التحرر والانطلاق نحو مستقبل مشرق . لقد اطلع الشاعر فيما بعد على الآداب الاجنبية والثقافات العالمية ، وعرف كيف يتقن نفسه ، ويزيد من المعرفة . اطلع على اشعار سعد الشيرازي والفردوسي . كذلك تعرف على مؤلفات هانريخ هاينه وجوته ، كما اغنى اطلاعه بالتعرف على التراث الادبي الارمني القديم والجديد . لذا نجده واسع الاطلاع عظيم التجارب ، له نفس طويل في المطولات من القصائد لا تنضب مناهله ولا تجف منابعه . ولا ينسى ان يفلسف الحياة بما يأخذه من الحكم الشعبية ونهج الشعراء الشعبيين القدامى في الغزل والمأساة . وما اعظم ما تمس مأساة الانسان روح الشاعر مأساً عميقاً لتلقي عليها خيوطا من اليأس حيناً او باقة من القساوة والتمرد حتى الثورة حيناً آخر . ولا تكف الآم الوجود والعدم عن احتواء قلبه المتيقظ حتى يقول :

اعلم ستاتي يوماً منيتي
وبها ينتهي درب حياتي
ويواروني في التراب الخصيب
ناسين كل أضوائي ،
وانوار أشعاري .
وستطلق الشمس ، دون هم ، ضحكها من جديد ،
ناشرة حولها كنوز نورها العتيذ ،
وحتى امي لن تصدق اني يوماً وجدت
وجدت ، وعشت ، ثم مضيت .

وعندما يفلقون عليّ باب قبري
يسنون ذنوبي . يلهجون بالحب ذكري ،
وتفسدو حياتي الماضية أسطورة
سامية لا تعود ، مثل أيام عوري الماضية .

كان تشارنتس ، بعد أن خاض غمار الحرب العالمية الاولى وذاق احوال
المعارك ، وشاهد الدمار والخراب ، قد ادرك تماماً معنى الحرب . وعرف الى
جانب ذلك قدسيته من الناحية الوطنية والتحرر ، كما ادرك سمو هدفها
القومي في الغداء والتضحية . الا انه عرف ايضاً كيف يستنكر الحروب .
وانها تعني الخراب والدمار ، المذابح والتقتيل ، وانها فتك وافناء للانسان
والحضارة ، واي فتك وافناء . لم تكن مشاهد القتل تمر بسهولة امام انظار
الشاعر دون أن تثير في نفسه الرقيقة الحساسة مشاعر القرف والأشمئزاز .
وتحت هذه المشاعر كتب الشاعر قصيدته الرائعة (الأسطورة الدانتية) وهو
لا يزال في خنادق القتال يدوق طعم الموت كل لحظة ، ويشم رائحة اللحم
المحترق من كل ناح وصوب . ففي هذه القصيدة يصور ، في البدء ، جمال
الحياة وحسن الطبيعة ، واذ به ينتقل الى جحيم الحرب ، واين منها جحيم
دانتي؟! دانتي تخيل الجحيم ، وتشارنتس ذاق مرارته ، وعاش فيه ، وشاهد

هذا الجحيم الحقيقي وعائشه حيث مدن تلك وقرى تحرق واشلاء الجثث تتطاير مع شظايا القنابل . هنا بقايا ارجل اطفال وهناك رؤوس شيوخ او نساء مفصولة عن الجثث لا تزال تحترق ، فتشور روح الشاعر وتتمرد ، ويتساءل عن يكون المسؤول عن كل هذه المآسي ، ويوجه نداه الى الانسانية اجمع .

لماذا هذا الحلم المدمر للعالم

نعق فوق رؤوسنا بعشوائية ؟

لماذا ينشر كل هذا الدمار وهذه الآلام .

وهذه الرياح الشريرة متى ستكف عن العصف .

ومن يحيك هذه المؤامرات ،

ويحيل الى جحيم لعين هذه الحياة .

تتألف هذه القصيدة من ٧٣ بيتاً ، انها ملحمة الحرب واهوالها .

وفي عام ١٩١٨ ينطوع تشارنيس في صفوف الثوار ، ويخوض معمرة الحرب الاهلية لازالة القيصرية ولهدم الماضي البقيص في سبيل مستقبل مشرق جديد . وفي خنادق الحرب الاهلية ومن صفوف الثوار الذين يدكون حصون الاستعباد ، ويحرفون نحو فجر ملحمي جديد ، نحو شمس الحرية ببطولات نادرة ، ولدت قصيدة (الجماهير المجنونة) الملحمية حيث الجماهير الثائرة ، الثائرة حتى الجنون . لقد جاءت من كل ناح وصوب ، جاءت من المدن والقرى، جمعت جموعها في ثورة عارمة تكاد أن تصل الى الجنون . اسمعوا ماذا يقول :

جاءوا من السهول القصية ،

وجاءوا من الحقول الدنية ،

جاءوا من جديد والامل شعلة تحرق منهم حبات القلوب .

من جاء من السهوب حيث كان العيش رقا

جاء وعرض السهوب في زرقة العيون .

جاءوا نافرين حتى الجنون . جاءوا ، وقد عجزوا عن حمل ثقل الحياة القديمة .

لم يعبر شاعر عن ثورة الجماهير بكل هذا الصدق والاخلاص . ان كل كلمة منها تسيل ثورة وتمرداً وكل عبارة منها تنطق غضباً . لقد حمل تشارنتس السلاح بيد والقلم بأخرى ، ليبعد أروع بطولة تصنعها اليد الغيرة التي تحمل السلاح للدفاع عن الوطن وللذود عن الحرية والكرامة . لقد سجل الشاعر بكلمات أقوى من الرصاص وأصلب من الفولاذ بطولة أولئك الناس البسطاء الطيبون ، المتطلعون الى شمس العدالة الاجتماعية لمنحهم شيئاً من الدفء والحرارة لاستعادة كرامتهم المهدورة .

طبعت هذه القصيدة لأول مرة عام ١٩١٩ بتفليس في كتيب ، وبعد ذلك طبعت طبعات عديدة .

وأصدر تشارنتس بين الأعوام ١٩٢٠-١٩٢٣ رواية بعنوان (بلاد نايري) صور فيها تشارنتس الحياة في مسقط رأسه مدينة فارص ، بل انه يؤرخ لهذه المدينة ، بأسلوب شعري ساحر ، ويحلل نفسية شخصياتها ، من مختلف الطبقات والاتجاهات .

في عام ١٩٢٢ ظهرت مجموعة اشعاره بموسكو في مجلدين . وفي عام ١٩٣٠ صدر ديوانه المرموق (الفجر المحمي) ويضم هذا الديوان قصائده الرائعة ، واشعاره الناضجة ، يعبر فيها عن قضايا الساعة وعن القضايا الوطنية التي لا تنفصل عن مسيرة الثورة والانسانية ، ويتعرض فيها لمصير الانسان في الحياة الجديدة وبناء المستقبل . يقول في قصيدة بعنوان : (أغنية المحيط) :

غنّ أيها الشاعر غني أغنية الرياح ،
غنّ أغنية الحب أغنية الكفاح ،
غنّ كالعاصفة كرياح السموم

فلا شعلة تلك الاغنية اطفئت
من فؤادك ، ولا نارها خبت ،
في خلود لهيب هذا الحب الا محبود ،
في هذا الكفاح المرير ، في هذه المعركة الطاحنة ،
لتزد نفسك صلابة كخنجر من فولاذ
ولتشعشع مثل حكمة عبقرية ،
ولتغلي في جوارحك غليان الحيوية الخالدة .

لم يجنح الشاعر الى استعمال القوالب الجامدة ، والمضامين المادية
المكررة ، ولم يضح بالجمال والفنية في سبيل الالتزام المقلوب ، وانما كان
ملتزماً بقضايا أساسية واسعة التزاماً لا يحدد حرية الفن - لقد فتح نوافذه
لكافة الأغراض ولمختلف المضامين الشعرية التي تحقق بجمالية الإبداع الفني
غايته ومراميه ، بالوان فيها الحيوية ، وصور تضيح بالحياة والانفعال .
والشاعر يتقدم كل يوم خطوة الى الامام محدداً مبدعاً ، حتى قال عن نفسه
في احدي قصائده :

نعم ، فانا الآن ايضاً ، لست كصا كنت <http://www.archive.org>

وانت ايضاً يا قيساري قد تبدلت
وكذلك صباحك المشتعل كالذهب .

لقد اغنى تشارنتس تجاربه الشعرية عندما قام عام ١٩٢٤ بزيارة الى كل
من المانيا وفرنسا وايطاليا وتركيا ، واطلع على الحضارة الاوربية عن كثب .
وزودته هذه الجولة نضجاً ومعرفة بما شاهده من التناقضات والازمات في
حياة الانسان الاوربي ، وبما لمسه من تطلع الناس الى العدالة الاجتماعية
وخاصة بعد الدمار الذي اصاب تلك البلاد من جراء الحرب العالمية الاولى .

كان الشاعر متفائلاً بالمستقبل الاشتراكي ، يشعر بقوة الدماء تجري في
عروقه جديدة مشرقة . لقد زال الخوف ومضى زمان الاستعباد ، وعاد الحق
الى اصحابه الحقيقيين .

ويقول في ذلك :

غارساً أقدامي بقوة في قلب الثرى
وهامتي تطاول سماء النجوم
انتصب بلا خوف فوق التراب
وبعيتون صافية تحديق أبداً
انظر الى المستقبل البعيد .

انه صوت الحاضر المنطلق نحو المستقبل . انه ينشد ملاحم بطولات الشعوب ، انه يمثل ضمير الانسانية في كل مكان وزمان هذه الشعوب التي تقف بقوة وجبروت في وجه جلاذيتها ساليي حقها في العيش والابداع ، في بناء حضارة الانسان الجديد وهي تقف بقوة على تراب الوطن . ان الاجيال القادمة لا بد ان تعرف كل ذلك . قال من قصيدة بعنوان (الاذاعة) :

اولئك الذين لم يولدوا بعد .
وسوف يولدون ويرون هذه الدنيا لأول مرة
وسوف يعيشون فيها عما قريب .
هل يستطيع أولئك بالاّ يشعروا بالذات
انطلاقة مسيرتنا الحاضرة هذه ؟

وأخيراً في عام ١٩٣٣ تصدر للشاعر مجموعته الاخيرة في الشعر بمجلد واحد تحت عنوان (كتاب الطريق) أي بمعنى (رائد الطريق) . وتضم هذه المجموعة اقوى مطولاته الشعرية ابداعاً ، وانضج قصائده الانسانية والفكرية واكملها فناً . امثال القصائد التالية . - مع دروب التاريخ - ورؤيا الموت - والاخيرة قصيدة مطولة تتألف من ٧٤٢ بيتاً ، حيث يصور آلام شعبه وهو يرجع الى عالم الآخرة . كذلك تضم هذه المجموعة تلك الرباعيات التي سماها (تشارنيس نامة) ، حيث نشعر بعبير الشرق ، عبير الورد والقرنفل والخمرة والحكمة . وتضم ايضاً قصائد مهداة الى - الطبيعة - والفلاح (سبع حكم الى بذاري للقد) - و (سبع حكم الى مغني المستقبل) .

اسس تشارنيس مدرسة شعرية جديدة في الادب الارمني بمضمون

ثوري جديد . ان عناصر البطولة والمهمة ليست ضيوفاً بصورة اعتبارية عند الشاعر في ابداعه الفني الممثل للحياة المعقدة ، وانما هي اصيلة كل الاصاله وجديدة كلياً تمثل معركة جمالية الفن بقوة ساحرة ، وبكمال متجدد دوماً دون ركود أو جمود ، وهي تصل الى انسجام كامل بين الشكل والموضوع ، والغرض والاسلوب محدثة تياراً للتعبير الشعري .

عندما يفلقون عليّ باب قبري
يئسون ذنوبي ويلهجون بالعب ذكري
وقال ايضاً :

النسيان اذن لجميع الاموات
والمجد دوماً والخلود ابداً
لاولئك الذين ما تركوا في الحياة
الا نار الذكريات

ولتشارنتس ايضاً اهتمام مترجمة من بوشكين وجوتيه وغوركي وغيرهم من الشعراء المعروفين . لقد لحن عدد من اشعار تشارنتس بسبب الشعبية الكبيرة التي كان - ولا يزال - يتمتع بها ، وتغنى الشعب بهذه الاشعار وخاصة القصائد الوطنية منها ، ومنها قصيدته الوطنية المشهورة (احب في وطني ارمينيا ..) وترجمت الى لغات عديدة .

ظهرت دراسات عديدة في المجلات الادبية وفي كتب خاصة عن شعر وادب تشارنتس ، نخص بالذكر كتاب (شعر تشارنتس) للناقد الادبي كاركين هوفسيبيان عام ١٩٦٩ . كما ترجمت اشعاره الى اكثر اللغات في الاتحاد السوفيتي كذلك الى الانكليزية والفرنسية ولغات أخرى . وتوفي الشاعر سنة ١٩٣٧ .

وها اتي اقدم ، مع هذا التعريف الموجز عن حياة وادب تشارنتس ، اقدم للقرّاء العربي ترجمة كاملة لقصيدة (الجماهيم المجنونة) ، وهي من اشهر قصائده الثورية واجملها . لقد ظهرت في طبعات خاصة عديدة مزينة بالرسم الفنية الجميلة .

- ١ -

الى الرفاق في القرب
الى الرفاق في البعد
الى الدني الى الشموس
الى احيج النار في النفوس ،
الى كل من تشتعل نفسه اشتعالا ،
الى جميع النفوس الملهبة كالشمس ،
الى النفوس التي تطلق حية
في اتون هذا الفسق الجامح ،
غسق الحياة والموت ،
تحياتي تحياتي ...



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.com>

كان مساء احمر كالجمر ،
الشمس اللاهبة تتوارى في المغيب
وضباب احمر دامي الارداء
يلف منتشراً أرجاء السهل ،
فكانه سمّ زعاف عصر من مهجة لهيب الشمس .
والشمس المتأججة كانت تنحدر نحو المغيب ،
صابغة وجه الفلاة بالدم
باصقة فيه زعاف السمّ
كانها اتون احمر يشتعل في الأفق ،
ينشر على السهل لمعان بريق كالدّم .
كانت الحقول المألجة قد اشتعلت
بحمرة بريق شمس الاصيل .

والسهل الشاسع يمتد احمر كالجمر .
على مدى البصر بلا نهاية ولا حد ،
كانه بحر مترامي الأرجاء ،
قد احتضنه ضباب المساء .

- ٣ -

في ربوع ذلك السهل القديم
كانت الجماهير المجنونة تقاتل ،
وشمس الاصيل تغمرهم ،
ونار المغيب تحرقهم .
جاؤوا من المدن ، جاؤوا من القرى - .
جاؤوا من السهول القصية
وجاؤوا من الحقول الدنيئة
جاؤوا من جديد والامل شعله تحرق جبات القلوب .
من غادر المدينة - فقد ترك وراءه الضباب الهرم .
ضباب كان على صفحة الحياة
غيمة سوداء من دخان .
ومن جاء من القرية النائية -
فقد ترك وراءه رطوبة التربة ،
حيث لم تنبت حياة الخنوع
اية سنبل ذهبية .
من جاء من السهوب -
فقد ترك وراءه عرض الأفق الشاسع ،
الأفق الذي كان سجناً له .
ومن جاء من المدينة النائية ،

- حيث يسود ضباب خفي
قد حمل قلبه السلول كراية حمراء .
من جاء تاركاً في البعيد
ظلام القرية المديد ،
قد جاء بقوة التراب ثمر في عضلاته .
ومن جاء من السهوب ،
حيث كان العيش رقا ،
جاء وعرض السهوب في زرقة الميون ...
جاؤوا ناثرين حتى الجنون ،
جاؤوا ، وقد عجزوا عن حمل ثقل الحياة القديمة .
جاؤوا جامعين جموعهم .
جاؤوا ليقاتلوا في ربوع ذلك السهل الشاسع .

ARCHIVE

<http://Archivebata.Sakhit.com>

- كانت شمس الاصيل ترسل نورها كاللهيب ،
وهي تنحدر نحو المغيب .
وكانت الجماهير المجنونة
تقاتل بالأيدي ، تقاتل بالاناشيد .
كان السهل يمتد امامهم اشعة الشمس الخجول .
والمدينة الكبيرة ، هناك في البعيد ،
كانت بادية على قارعة الطريق بدلال الكسول .
كانت المدينة القديمة تتمدد دونهم
في غمرة شمس الاصيل ،
وتتلاها كتلة بالف لون ولون .
كانت المدينة القديمة تمتد هناك ،
بعيدة بعيدة ، عريضة بلا حد ،

تخالها تستحم في سكون ضباب المساء .
 وابنتها الضخمة كانت تشمخ بقاماتها ،
 حتى تبدو معلقة في حمرة الاجواء .
 كانت الظلمة تلفها رويداً رويداً ،
 وتمسح الوانها حتى تبدو كالحة غبراء .
 لم تبق سوى زجاجات النوافذ مشتعلة بالنار البعيدة ،
 وهي تلتمع امام آخر جمرات الشمس الدموية .
 ترسل ببريقها نحو الشمس احمر كالجمر ،
 وقد اشتعلت في قلوبها حمى مجنونة ،
 وكانت المداخن الهائلة غارزة هاماتها في كبد السماء ،
 كالمسامير الدامية ، ترسل لمعانها بلون الدماء .
 فوهاها ما كانت تنفث دخاناً ، يتصاعد في الاجواء ،
 ولم يثقل تكافئه سماء المساء ،
 فلم يكن الا ضباب المساء يتكاثف رويداً رويداً ،
 ويبتلع في جوفه المداخن الحديدية .

<http://ArchiveBeta.Sakhril.com>

- ٥ -

اما محطة القطار فكانت تبدو
 جنوبي المدينة رهيبة شامخة .
 وبين الحين والآخر ،
 كان يسمع صفير القطار
 حاداً ، خلال الضباب من بعيد ،
 حتى ليخيل للمرء أن حيواناً هائجاً كان يذبح هناك ...
 فينطلق صوته بصرخات حادة يشوبه اليأس والقنوط ،
 ويمتد عبر السهل كنبأ المنون الأبدي .
 كانت المحطة قابضة في وجههم ضخمة هائلة .

ومن عقد سكك المحطة
شمالاً وجنوباً ، غرباً وشرقاً ،
كانت تمتد الخطوط الحديدية
عبر السهول الشاسعة .
وكانت الخطوط الحديدية
تمتد من محطة المدينة ،
الى البعيد البعيد ،
كانها عروق قذت من الحديد ،
وهي تحتضن بقوة صدر التراب .
فكانها عروق من الصلب .
وخلسة ، تمضي قصيا ،
وهي تتقارب شيئاً فشيئاً في المدى البعيد ...
وعلى عقدة ما تتصالب الخطوط الضيقة .
كانت المحطة تبرز ، كقفية ما ، بصمت كبير قد تحجر .
وعلى مفترق الطرق كانت أشبه بعقدة
تلهم اطراف الخطوط وتشدّها اليها -
و ... كانت تقاتل الجماهير المجنونة دون هوادة .
كانوا يقاتلون ، متشددين الاناشيد ،
ويتقدمون لاحتلال المحطة ،
كان يبدأ جسارة ، تحركها ارادة العالم
كانت تقذف بهم الى الامام .

- ٦ -

كانوا يقاتلون . والمساء يث هواءٌ عيلاً ،
والمدينة تمتد امامهم كخضم عنيد ،
هائلة كابي الهول ، يجثم بصدرة على التراب ،

- سادة الطريق الحمراء طريق الجماهير الصامدة .
- والمحطة الضخمة تربعت تجاه المدينة بعزة وشموخ ،
- في حمرة ضباب المساء كأنها كلب يحرسها .
- تربعت قبالتها أسيرة لارادة صاحبها ،
- تحرس حركة عروق الحديد تلك .
- وخنادق كانت تمتد كأمواج البحر ،
- على طرفي العروق الحديدية من الشمال والامام .
- وقد قبع العدو في حفراها المتماوجة ،
- يحفر السهل الممتد قبالاته بأنامله الدامية ،
- ويطلق الرصاص خفية بأياديه المجرمة .
- وقد كمن غامصاً في صدر التراب الدافئ .
- كانت الجماهير تتقدم بخطوات حثيثة وهي تقاتل .
- والقنابل تزار مدوية وتنفجر .
- فكان تلك المعركة كانت اغنية
- ترسل رنينها عند المنيب .
- هذه قنبلة قد انطلقت وانفجرت بقوة في الخندق ...

- V -

- كانوا يقاتلون ويتقدمون بالقتال
- وعلى مدى اتساع سهول الاصيل ،
- كان الموت يطلق ساخر الضحكات .
- ويرفع عقيرته بالفناء ودوي القنابل يمتزج بالغناء .
- والجماهير تتقدم ، وهي تقاتل بضراوة النار .
- قلب كل مقاتل منهم كان أنشودة ،
- ونظرة كل واحد منهم اغنية من نار ،
- كانت قلوبهم تشتعل كجمرة الفجر .

والشمس القديمة كأنها انشودة
كانت تستعر بأنوار الاصيل .
والجماهير المجنونة كانت تقاتل ...
تقاتل ، وتقاتل وهي تنشد ...

- ٨ -

ومقاتل كان يغني بصوته الجبار المدوي ،
يتغني مادحاً بسالة رفيق جاء يقاتل ،
وتنطلق أغنيته كالصقر نحو الأفاق البعيدة .
كان يقاتل بضراوة وهو ما زال يغني بإتسامة مشرقة ..
كان يقاتل ،
كانت الشمس القديمة تنحدر نحو المقيب
شعلة حمراء .
وكان صوته كدقات ناقوس
عبر سهول المضاء .
دقات ناقوس يرسل رنيناً حاداً ،
ليعلم البشر ، وليعرف الناس جميعاً .
كان يغني بلفظ شوق غير متناه .
كان يغني وهو لا يزال يطلق النار .

- ٩ -

» ... من السهوب ، من الغابات ، من المدن القاصية والدانية ،
ها قد أتينا من جديد حاملين قلوبنا ،
قلوبنا المشرقة أملاً وحيوية .
فهنا الآن معركة ، هنا موت وغسق مجهول .

ها قد رفعنا الآن مهجنا راية حمراء امام الموت .
ها هي الشمس القديمة ، شمس المصور تغيب الآن
وهي شاحبة ، تنزف الدم .
دنيا المساء هذه تبسم لنا بسمة حمراء دامية ...
ونحن ما زلنا نقاتل بقلوب تطفح بهجة وسروراً ،
بينما تنطلق انشودتنا في رحاب هذا القتال الآن .
يقاومنا العالم كأنه عدونا منذ آلاف السنين ...
آه ... سيضحي الكثير منا بقلبه المشتعل شوقاً .
كاشواقنا الحمر ، فلا هواده في هذه المسيرة الجيدة .
فالي النار ، اطلقوا النار يا رفاقي المجانين ... »



كانت شمس المساء تطل على المنيب
بنورها الشاحب ،
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

والجماهير المجنونة تقاتل بصلابة ، دون يأس .
عيونهم تقدح بحمرة كالجمر ،
قلوبهم تطفح حمراء كالنار ،
وهم يقاتلون بثقة وثبات ،
حاملين حملتهم الاخيرة بصغوف مرصوفة .
انهم يتقدمون . وترتفع أغنيتهم بجنون ،
وهم يصلون العدو نارا حامية .
وإذ بالعدو يدبر هارباً هلعاً .
كان الظلام قد حل ، وغاب آخر شعاع للشمس
عندما احتلوا المحطة بحملة بطولية ...

- ١١ -

- الآن ظلام ، هبط الليل بكل عمقه وكللكه .
الآن ظلام ، ظلام كثيف دامس ،
لا نور يضيء محطة القطار ،
حيث الجماهير المجنونة تتزاحم بالآف الوجوه والاسماء .
والاقواس الحديدية الضخمة
لا ترى في ظلام الليل .
فالانوار اطفئت في المحطة ،
خشية ان يلمحها العدو ..
انهم ينتظرون ، واحداقهم عالق بالافاق المظلمة .
المحطة سقطت في ايديهم بعد حلول الظلام .
الآن - ، ينتظرون طلوع الفجر ، طالبين شيئا من الراحة .
وفي الصباح سيزحفون من جديد على المدينة .
تحديق عيونهم في الظلام الكثيف ،
وقلوبهم تخفق عطشى ،
وينتظرون طلوع الصباح ليستأنفوا القتال .
كم كانت المدينة تبدو قريبة من محطة القطار ...
قبيل قليل ، عندما كانوا في السهل
يخوضون غمار قتال دام .
جاءوا واحتلوا المحطة الكبيرة ،
وهم يقاتلون ، وينشدون الاناشيد .
اما العدو فقد التجأ الى المدينة متدحراً هارباً .
الآن ينتظرون ، ليرتاحوا حتى انبلاج النور ،
ليستأنفوا الزحف مع الصباح على المدينة .

- ١٢ -

في عتمة الف عام ، وفي اعماق الليل اللامتناهية ،
حشدوا حشودهم في المحطة .
والسهل المظلم يمتد امامهم .
فلا يعكر صفو هدوئه صوت ولا ريح .
الظلام سيد كل شيء .
هنالك يمتد السهل امامهم دون حد ،
كتلة لا متناهية الاطراف ، سوداء معتمة ،
حيث تربع الشك مظلماً ، مليئاً بالاسرار .
فلا عين له تبصر ، ولا نور يضيء ،
لقد اقمى مثل كلب يحرس الآن ظلمة الليل .
لقد اقمى ، والضباب الكثيف يلقيه مثل عبدو لا يرى .
الشك القديم تربع في الظلام ،
يحدد في المحطة القائمة امامه بعيون معتمة .
وكان الظلام كان يتحرك محدقاً بعيونه
في زرقة عيون الجماهير المجنونة .
بنظرات تحدد دون رفة جفن ، واضطراب كاد ان ينطق
تنظر الجماهير المجنونة في الابعاد المدلهمة .
يحددون بزرقة عيونهم الحزينة
بعمق في العتمة اللامتناهية ،
وضجة الليل الخرساء تترن في المحطة

- ١٣ -

امام المحطة الكبيرة تجمعت جيوشهم سيلاً عرمرماً ،
وعيونهم الزرقاء تحديق في ظلمة السهل
وهي تفيض بارادة كالشمس .
يسود الظلام امامهم فاتحاً فاه' كالهواية .
وهناك في البعيد القصي ،
كتلة ترسل نوراً احمر ،
ويتراءى ذلك النور المشتعل في البعيد المغم
كتلة تلتهب ، نقطة حمراء ؛
امام الميئون التي تحجبها غشاوة الظلام ،
امام النظرات التي يقلقها الترقب
وترسل تلك الشعلة بنورها في هداة ظلام الليل ،
ترسل شعلة حمراء ، حمراء ، باضطراب .
اشعلوا ذلك النور في ظلام الليل
كي لا تنام القوات ، ولتبقي نقطة مستعدة .
وفي عتمة الليل الترامية بعيداً
تبدو تلك الشعلة .
اشعلوها رمزاً للقتال ، للشورة .
هي المدينة قائمة منذ الف عام ،
حيث الصراع يتحكم ، والقشعريرة تسود ،
انها متخفية كمدو جنّ جنونه من الخوف .
والجمرة الاحمرء تلك تبدو وكأنها نقطة دموية
هائلة رهيبة في دماغ مجنون مهووس ،
قد التهبت بآخر امل ، واشتعلت بحرارة الاحتضار .

- ١٤ -

تنتظر الجماهير المجنونة انبلاج الصباح ،
واحداقهم في ظلمة الدجى مسمرة في نقطة الامل الحمراء .
وتلك النقطة السوداء في احزان نفوسهم المؤمنة
تلتهب كشعلة أمل في الافق البعيد .
انها سيف مضى في افئدتهم مضاء اقطاب نار حمراء .
مائلة قلوبهم سماً ولهيباً ، واحلاماً تدمر العوالم ...
يضج الجرح القديم جرح آلاف السنين في قلوبهم ،
ويزرع الآن السعير والعصيان في نفوسهم المؤمنة ،
ورغبة حمراء دموية تشع في عيونهم السماوية .
وملايين العيون تبصق السم ، تبصق السم والدم ،
وتتصاعد مرارة السنين الاليمة من افئدتهم ،
ثم تحترق في عيونهم الزرق دموية مسعورة .
ويعيون طافحة بالدماء ، محدقة في النقطة الحمراء
تنتظر الجماهير المجنونة انبلاج الصباح .

- ١٥ -

نفوسهم المظلمة ليل دامس أمام الليل ،
تنتظر بشوق لاهب طلوع الصباح .
قلوبهم ظلام كبير ، ولكن في ذلك الظلام اللامتناهي
تكمن سموات زرقاء العيون ،
وأفاق مدبدة ، أفاق لا تحد .
وفي عيونهم الزرق حيث بسط الليل الظلم ذراعيه .
آلاف براعم نارية ، وفجر وصباح .
تربعت في عضلاتهم المشدودة قوة الأرض الرطبة .

فان أرادوا - أعطوا الشمس دفقة انطلاقة جديدة وطريقاً جديداً ...
ان أرادوا - قذفوا الشمس الى ذرى السماء
ان أرادوا - انزلوا الشمس من العلياء ...
ان أرادوا - بارداة لا تلين تلتهب بنار الدنيا ،
فأي شيء تعجز عن تحقيقه الجماهير المجنونة ...

- ١٦ -

ويسيل الليل المظلم ، مقترباً من الفجر .
ويسيل آخر ، ساعة الانتظار باردة دون جدوى .
ها هي نسيمات الفجر تهب من السهل لطيفة منعشة
وتزكو نار تلك النقطة الحمراء بآخر نورها ...
ها هي العتمة تتلاشى قليلاً قليلاً ويتبدل لونها .
وساعد من نار هائلة تشق كبد الظلام في الشرق .
وتسري في غسق الفجر من الأفاق البعيدة
انتعاشات الريح المطيرة الفواحة رقيقاً هادئاً .
وتتحرك الظلمة هنا وهناك ، وفي البعيد الملتفة بالعتمة ،
ها قد أخذت المدينة تبدو كتلة سوداء غامضة ،

